Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخر الكلام على أوله وأوله على آخره»[43]. وقد قدم بينات لإثبات دعواه من سورة البقرة وسورة المؤمنين ومن السور المكية عامة. فالشاطبي يعتقد أن الآيات المكية تدور حول ثلاثة معان، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله. وأما المعاني الثلاثة فهي تقرير الوحدانية، وتقرير النبوة، وإثبات أمر البعث والدار الآخرة[44]. ورغم أن سورة المؤمنين طويلة فإنها عبارة عن قصة واحدة في شيء واحد؛ وهذه القصة الواحدة يمكن أن تساق عدة مساقات بحسب اختلاف مقتضيات الأحوال. إذ يمكن تجميد بعض المعاني وتنمية معان أُخَرَ. لأن السياق متحكم في مساق النص. وهكذا، فإنه «على حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن»[45]. ولكن هذا الفهم لا يتحقق لمؤول القرآن بصورة مضبوطة إلا إذا كان على علم بمقاصد الشريعة وبِتَضَافُرِ نصوصها وخدمة بعضها لبعض لأنها «صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة»[46].

على أن هناك نصوصاً يظهر خرقها لهذه القاعدة، إذ توهم بالتعارض وبالتقابل وبالتناقض، ولكنه ما هو بالتعارض، وما هو بالتقابل وما هو بالتناقض، ولكنه ظهور وإبهام، إذ بمجرد ما يعمل فيها التأويل بناء على قواعد منطقية يرتفع التعارض والتقابل والتناقض، وهكذا يمكن ترجيح الأدلة العامة على الخاصة[47]، أو أحد النقيضين على الآخر، ولكن الجمع بين الأدلة هو المختار، إذ فيه إعمال الدليلين أو الأدلة جميعها، وهذا هو الأليق بأي خطاب عقلي.

III ـ مشروع الشاطبي الإيديولوجي والسياسي:

1 ـ التأويل الفاسد:

اجتهد الشاطبي في أن يدافع عن اتساق النصوص القرآنية وانسجامها، وفي أن يقدم مبادىء وقواعد للتأويل وفي أن يتحدث عما يؤول منها وما لا يؤول، وعَمَّنْ يقوم بالتأويل، وعمن يجوز له أن يطلع على التأويل وعمن لا يجوز له. وكل هذا المجهود الذي قدمه في «الموافقات» وفي «الاعتصام» يهدف في المقام الأول إلى تعزيز وحدة

(43) ما تقدم، (ج 3، ص 413).

(44) ما تقدم، (ج 3، ص 413).

(45) ما تقدم، (ج 3، ص 419).

(46) كثيراً ما تتردد هذه القولة أو ما يشبهها لدى الشاطبي.

(47) الشاطبي، الاعتصام (ج 1، ص 182).